11 me Année No. 516

Lundi - 24 - 5 - 1943

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ مـ في مصر والسودان
١٢٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١٥ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٥١٦ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ — الموافق ٢٤ مايو سنة ١٩٤٣ » السنة الحادية عشرة

الفهـــرس

صفحة			
٤٠١	أخطار الطعام الواحد ..	: الدكتور زكي مبارك ...	...
٤٠٦	العقيدة الدينية وطريق ثبوتها	: الأستاذ محمود شلتوت ..	
٤٠٩	أدباؤنا والمسرح	: الأستاذ دريني خشبة ...	...
٤١٢	بحث لنوى أنف	: الأستاذ عبد القادر المغربي	...
٤١٤	كيف عرفت الرافعي . .	: الأستاذ محمود أبو رية	...
٤١٥	ذكريات [قصيدة] ...	: الأديب أحمد أحمد العجمي	...
٤١٦	الأحلام	للكاتب هنري برجون ... بقلم الأستاذ ألبير نادر ...	
٤١٨	من أزهار الشر	للشاعر « شارل بودلير » ... بقلم الأستاذ عثمان علي عل	
٤١٩	الاصلاح والحرية . .	: الأستاذ حلمي الادريسي ...	
٤١٩	فائدة القرض من المصارف المالية	الأستاذ محمود شلتوت ..	
٤١٩	عبرات	: الأستاذ محمد محمود رضوان .	
٤٢٠	في القصة والمقامة	: الأستاذ عبد المتعال الصعيدي	
٤٢٠	تراجم المعاصرين	: الأديب حسين محمود البشبيشي	
٤٢٠	جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية	:	...

أخطار الطعام الواحد

[رسالة مهداة إلى جار الشجرة الزهراء]

للدكتور زكي مبارك

أكاد أحكم بأن جمال الحياة من صُنع أيدينا ، وأن الله لم يجعل الإنسان خليفته في الأرض إلا بعد أن زوّده بالقدرة على تجميل الحياة بأغرب وألطف ألوان التجميل

ومَلَكات الإنسان تؤهله للغرور القائم على أساس ، فمن حقه أن يزعم أنه يَهَبُ الحياة للحياة ، وأن يقول في بعض حالات التمرد إنه خالق لا مخلوق

ولن نؤمن بالله حق الإيمان إلا يوم نعرف على وجه التحديد أو التقريب قيمة ما خصنا به من القدرة على تلوين الوجود بأشتات من الألوان

والواقع أن العزة الإلهية دانت الإنسان بدين تعجز عن حملها الجبال . ولا يعاب على الإنسان إلا غفلته عن استثمار ما في صدره وروحه وعقله من كنوز تفوق الذخائر المعروفة والمجهولة في جميع بقاع الأرض ... هو يملك ثروة معنوية في غاية من النفاسة ، ولكنه قد يجهلها بعض الجهل أو كل الجهل فلا يبذل في استكشافها أي مجهود ، ولا يؤذيه أن يعيش على الفِطرة كما يعيش سائر الحيوان

كل أمة من الخلائق تنقرض بالموت ، إلا الأمة الإنسانية ، فهي تترك شواهد خوالد على ما قدمت للحياة من أفانين العقل والذوق ، وهل كان من المصادفة أن تتفق الديانات على أن البعث بعد الموت مقصور على الأمة الإنسانية ؟

وأنا مع هذا أفترض أن البعث لن يكون عامًّا ، وسأحرص على هذا الافتراض لغاية أخلاقية توضحها السطور الآتية :

يوم البعث هو يوم الحساب ، ومعنى ذلك أنه خاص بمن كانت لهم إرادات ذاتية تدرك معانى الثواب والعقاب ، ومعناه أيضاً أن الذين مرّت حياتهم بلا إدراك قد يضافون إلى الخلائق المنسية ، إن صح هذا الافتراض

ولكن ما هذا التهيب فى عرض هذه النظرية ؟

هل أخاف من أن يعترض معترض ويبيده الأثر الذى يقول : أكثر أهل الجنة هم البُلْه والمجانين ؟

هذا أثر مصنوع ، اختلقه واضعه لغاية مدخولة يراد بها صد الناس عن الاحتكام إلى العقل فى مختلف المعضلات ، وإلا فما قيمة الجنة إذا كان أكثر ساكنيها من قدماء البُلْه والمجانين ؟

مزية الإنسان هي قوة الشعور بالمسئولية ، وهذا الشعور قد يسوقه إلى البحث عما فى صدره من المكنونات ، فإن فعل فقد يصل إلى منافع لا تخطر فى البال

الحياة لا تقاس بالطول والعرض ، وإنما تقاس بالحسب المعنوى ، وهو أطيب الأرزاق ، فمن واجبنا أن نزوّد أنفسنا بالكثير النافع من الأزواد العقلية والذوقية عساها تجود بإبراز تلك المكنونات

النفس كنز تحرسه أقفال وأرصاد . وقد تعب الناس منذ أزمان فى التعرف إلى كنوز النفوس ، بأساليب تختلف باختلاف الأقاليم والأفهام ، فأهل الهند يرون الصوم عن الطعام والشراب هو الوسيلة إلى كشف أسرار النفس ، وكان بعض فلاسفة اليونان يرون الطعام والشراب من وسائل الوصول إلى أسرار النفس ، وفريق من رجال الإسلام يرون النفس لا تتفتح إلا فى أعقاب الصلوات عند هدأة الليل

ما ذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد النص بصراحة على أن الرقي الإنسانى لم يبدأ إلا بعد التحرر من الطعام الواحد ، وذلك لم يقع إلا بعد أن عرف الإنسان كيف ينتقل من أرض إلى أرض . ودليل ذلك أن الأمم القليلة المعارف والقليلة الحيوية هى الأمم التى ألفت الاستقرار فى وطنها الأول ، لأن الاستقرار يخمد شهوة التطلع ، بسبب الركود الذى يصحب توحّد المطعومات والمرئيات

والمعروف أن حواس الطفل أقوى من حواس الكهل ، فكيف يكون ذلك ؟

قد يقال إن الحواس تضعف مع الزمن ، وذلك أسهل التعاليل ، ولكنى أرجح أن قوة الحواس عند الأطفال ترجع إلى أن كل شيء فى نظرهم جديد ، فهم يتطلعون إلى كل أفق ، ويتشوفون إلى كل مجهول ، ولا كذلك حال الكهل الذى ألف ما حواليه من الأشياء ، فهو ينظر ويتأمل بفتور وبطء ، ثم ينتهى به الأمر إلى تبلد الإحساس

والمعروف أيضاً أن النبوّات لا تظهر إلا فى البلاد التى يكثر فيها الاعتراك والاقتتال حول المبادئ والآراء ، فما كان يمكن لمكة أن تكون مهبط الرسالة الإسلامية لو أنها كانت قرية منعزلة لا تشتبك فيها المنافع ، ولا تصطرع فيها العقول . وهل ننسى كيف منّ الله على قريش برحلة الشتاء والصيف ؟

إن تلك الرحلات هيأت القرشيين لما صاروا إليه فيما بعد ؛ وفضل الإسلام على العرب لا يقتصر على تزويدهم بعقيدة التوحيد ، فهالك فضل عظيم ، وهو تمكين العرب من الاتصال بأكثر الأمم المعروفة لذلك العهد ، وهذا الاتصال خلق فى العرب حيويات جديدة ، وأيقظ فى نفوسهم كثيراً من القوى النافية ، وأمدهم بأزواد عقلية وذوقية لم يعرف مثلها العرب القدماء

والمدنية الإسلامية تمتاز بهذه الميزة ، فهى ليست وليدة العقل العربى الصرف ، وإنما هى مدنية دولية أخذت زاداً من كل أرض ، فقد كان المسلمون إنجليز زمانهم ، وكانت لهم مسالك إلى كل بلد عُرفت أرضه بالثمرات

هل تعرفون السر فى أن نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام كان يوصى بالزواج من غير القريبات ؟

تعليل ذلك سهل : فالتزاوج فى البيئة المحصورة ينتهى بضعف النسل ، لأن كثرة الألفة تضعف الشهية ، ولأن الاكتفاء بالقريبات يضيع فرصة الموارد الجديدة من الطبائع والأذواق .

الماهات الموروثة تكثر فى البيئات التى تتزاوج فيما بينها كثرة تنذر بالخطر المبيد . وقد تعرض اليهود لهذا الخطر فى الأزمان الخوالى فكثرت فيهم الماهات الحسية والمعنوية ، ثم

أتقنتهم الحوادث فشردتهم فى الأرض ليجدوا أجواء تطب لمرض القرار والاطمئنان

وقد أكثر اليهود من المطالبة بالوطن القومى ، وهو عندهم فلسطين ، فإن عادوا إليها جميعاً فستكون عودتهم المرموقة نذير انحلال ، ومن قال بغير ذلك فهو يجهل خطر الطعام الواحد على الجسوم والعقول

وقد صرخ اليهود لعهد موسى من الطعام الواحد ، كما قص علينا القرآن ، فأوصاهم موسى بهبوط مصر ، لأن مصر منوعة الفواكه والحبوب والبقول ، وهذا سر القوة التى جعلت المصريين يأمنون من طغيان الأمراض الفواتك على اختلاف الأجيال

قال العباس بن الأحنف وقد آذاه تقلب محبوبته فوز :

يا فوزُ لم أهجركمُ لسلالةٍ ... منى ولا لقال واشٍ حاسد
لكننى جربتكم فوجدتكم ... لا تصبرون على طعام واحد

وقال شاعرٌ آخر :

ومُظهرةٍ لخلق الله وداً ... وتلقى بالتحية والسلام
أتيت لقلبها أشكو إليه ... فلم أخلُص إليه من الزحام
أيا من ليس يكفيها محبٌّ ... ولا ألفا محبٍّ كل عام
كأنك من بقية قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام

وبقليل من التأمل تدرك أن هذين الشاعرين فى غفلة عن تلوين العواطف والأحاسيس . وهل يتعلق العاشق بمعشوقته إن أمن عليها الشركاء كل الأمان ؟

التعقيد فى الميول والأهواء هو سبب الحيوية فى الميول والأهواء . ومزية الإنسان أنه منوّع المطاعم والمشارب ، فهو يأكل ما تأكل السباع والأنعام والحشرات ، وهو لذلك يواجه مكاره الحياة بالقوة المستمدة من تلوين الطعام والشراب . إن مزية الإنسان أنه حيوان عارم لا تصده حدود ولا سدود ، وأنه يجد طعامه ولو سكن فوق رءوس الجبال

هل سمعتم خبر الوزير الإنجليزى الذى اختبر معدته بالأكلة الهندية ، الأكلة المركبة من توابل حرّيفة لا يقدر على ابتلاعها غير الهنود ؟

كان يقال إن العائلة الإنجليزية إذا استقرت مئة سنة فى الهند فستنقرض ، لأن جو الهند يخالف جوّ الجزر البريطانية ، ثم ظهر أن هذا القول يعوزه الدليل ، فقد تأصلت فى بلاد الهند عائلات بريطانية ولم تنقرض

والوثائق تحت يدى ، فالإنجليزى المقيم فى الهند تصل إليه أزواد من كل أرض ، فهو هندى الوطن ، ولكنه دولىّ الطعام والشراب ، وبذلك تأخذ أمعاؤه وقودها النوع من هنا وهناك

والإنجليزى المقيم فى الهند لا يكتفى بقراءة ما تخرج مطابع الهند . وإنما تنتقل إليه المطبوعات الأوربية والأمريكية بأيسر عناء ، فيرى وجوه الآراء الغربية قبل أن يرى وجوه الآراء الشرقية ، ويعيش بملء روحه وعقله عيشاً لا يعرفه جيرانه من الهنود

قلّت أملاك الآساد فى الأرض ، لأنها أكلة لحوم ، وقلت أملاك الغزلان فى الأرض ، لأنها أكلة أعشاب

هل تعرفون الظباء فى حياتها اليومية ؟

إنها تتمرن على الجرى فى كل وقت ، لتحسن الفرار من هجوم الآساد ، وكان ذلك لأن فطرة الظباء فطرة غبية ، فهى لا تحب غير حياة التوحش والتوحد ، وهذه الحياة فرضت عليها الذل ، كما فرضته على الآساد . أليس من بلاء الأسد أنه لا يستطيع العيش بأرض خالية من الحيوان ، ولو أخرجت أطيب الثمرات ؟

واكتفاء أكثر أنواع الحيوان بالطعام الواحد قضى بأن تعيش فى ظل الوهم الأول ، فهى جميعاً تخاف من النور حين يسطع بالليل . ولو دخل إنسان غابة وحشية وبيده مصباح لأزعج ما فيها من الكواسر والجوارح ، لأن تلك الخلائق ترى أن النور قوة سماوية لا أرضية ، وأنه لذلك أمضى سلاح

وقد تحرر الكلب من الطعام الواحد بعض التحرر لا كل التحرر ، ولهذا ظل على أشياء من المخاوف الحيوانية ، فهو يتزعج من الليل أشد الانزعاج ، وهو لا يكف عن النباح إن قضى الليل فى العراء

والطعام الواحد يؤذى الأرواح ، كما يؤذى الأبدان ، والعقل يُعطب بالطعام الواحد كما يُعطب الجسم . فمن الواجب أن نزود عقولنا فى كل يوم بأزواد مختلفات . ورياضة العقل على تقبل الآراء لا تقل نفعاً عن رياضة الجسم على تناول الطعام الحرّيف

لاحظت أن البهائم تميز بين الطيب والخبيث من الأعشاب بدون تعليم ، وهل سمعنا أن بهيمة أكلت عشباً سماً فماتت ؟

ولكن هذه الغريزة الهادية من أسباب الانحطاط في طوائف من الحيوان ، فيها تنعدم فرص التجاريب ، والتجربة خصيصة إنسانية وهي أعظم تمرين لتقوية عضلات العقل ، وللعقل عضلات !

ولاحظت أن المواليد الحيوانية تعرف طريقها إلى الحياة منذ ساعة الميلاد ، فهي تأكل وتشرب وتمشي وتلعب من أول يوم

فكيف ضاع هذا الحظ على المواليد الإنسانية ؟

وكيف جاز أن يحتاج المولود الآدمي إلى شهور طوال قبل أن يعرف كيفية الوقوف ؟

قالت إحدى الجرائد الإنجليزية في وصف الملك فيصل الثاني « هو طفل في غاية من الذكاء ولكن لا تظهر عليه علامات النُّضج المبكِّر »

فما معنى العبارة الأخيرة ؟ هل ترونها ترمي إلى التهوين من شأن ذلك الطفل ؟

لا ، إنها غاية في المدح ، لأن النضج المبكر ليس علامة حسنة في حيوات الأطفال

الإنسان الجيد كالشجرة الجيدة ، يحتاج في تكوينه إلى متاعب ، وقد حدثتكم مرة أن الشجر الجيد هو الذي ينمو في بطء وتمهل . وأحدثكم اليوم أن السوس لا يعض غير الخشب المأخوذ من شجر سريع النماء

أقول هذا لأقرر حقيقة لُطفتُ حولها عدداً من السنين ، ولم أستطع التعبير عنها بوضوح وبيان

تلك الحقيقة هي أن العقل لا يخاف عليه من اصطراع الآراء إلا إذا فاتته فرص التدريب على الاصطراع ، وهذه الفرص تفوت العقل إذا اكتفى بالطعام الواحد في المعقولات ، كما يتعرض الجسم للخطر إذا اكتفى باللون الواحد في المطعومات

ألم تلاحظوا أن خواطر الشك والريب والإلحاد لا تساور غير المبتدئين ؟

إذا رأيت شخصاً يجادل في آيات الله فاعرف أنه طفل ، لأن هذا النوع من الجدال مألوف عند الأطفال

وإذا رأيت شخصاً يناقش في أمور فرغ منها الباحثون فاعرف أنه طفل ، والطفولة في العقول قد تطول في حياة بعض الناس !

* * *

أما بعد فما الذي أوحى هذه الأفكار بهذا الأسلوب ؟

أوحاها ضيفٌ رحل إلى غير مَعاد ، وما أصعب فراق الحبيب المحبوب إلى غير مَعاد !

موضوع المقال هو الصفحات الآتية ، أما الصفحات الماضية فقد أنشأتها على سبيل التمهيد ، على قلة ما أصنع في تحرير المقال على دفعات

وسأترك الصفحات الآتية على ما كانت عليه في الوضع الأول ، لأني أخشى أن يصيبها التزييف بالتعديل

وفي ترجمة خبرك ، أيها المفارق إلى غير مَعاد ، أسوق الحديث :

في جُنح الليلة الماضية مات العصفور . وفي صبيحة اليوم دفناه في حديقة البيت بجوار شجرة زهراء ، ضنًّا على جسمه اللطيف بأن يكون طعمة لفرد من الحيوان أو لطائفة من النمل ، إن ألقينا به في الصحراء . . . فما تاريخ ذلك العصفور الصريع ؟

كان هدية من صديق راقه ما كتبت في خصائص الطير والحيوان ، يوم كنت أنشر بمجلة الرسالة قصة آدم وحواء ، هدية لطيفة من صديق عُرف أهله بلطافة الأذواق

دخل العصفور المنزل بعد الغروب ، وهو يغفو بعد الغروب ، ولكنه استيقظ حين بهره نور الكهرباء ، فتلفّت حواليه تلفُّت المتأمل ، عساه يتعرف إلى مأواه الجديد

وانتظر الأطفال تغريده في الصباح ، وكانوا سمعوا أنه يستقبل الصباح بالتغريد ، ولكنه آثر الصمت ، كما يصمت كل غريب !

وبعد يومين بدأ يرسل تغاريده بقوة أغنت الأطفال عن صلصلة « المُنبِّه » وحببت إليهم انتظار تباشير الصباح

كانت حياة هذا العصفور في طعامه عجباً من العَجب ، كان طعامه حبّات تُشبه حبات البرسيم ، ومع هذا كان يقزقزها قزقزة غريبة فيفصل القشور عن اللباب في لمحات وهو يتناول الغذاء ، وكانت هذه المهارة من طرائف ما ترى العيون . . .

كان مُقامه في مدخل البيت ، وهو مكان يواجه هواء الشمال ، ويشعر من يقيم فيه بقسوة الشتاء ، فاقترحت أن يقيم

ساعتين من كل صُبحية بشرفة الغرفة الشرقية ، وهى مأوى فى الشتاء

فرح العصفور بالشمس فغرّد وغرّد ، والتفتُّ فرأيت جماعة من العصافير تحيط بالقفص لتستمتع بالحفلة الموسيقية ، الحفلة التى تُقدم كل صباح بالمجان !

عند ذلك أشرت بأن يبقى العصفور فى تلك الشرفة ساعات من كل يوم ، إكراماً لهذه العصافير المرهفة الأحاسيس !

ثم وقع ما لم يكن فى الحسبان ، فقد سُمع صراخ العصفور ، سُمع من الدور الأول وهو يصرخ بشرفة فى الدور الثانى ، مع أن التليفون لا يسمع فى الدور الأول إلا بتوصيلة كهربائية تمنح التليفون لقب الهتّاف

أسرعت الروح التى تهيمن على البيت لتعرف سبب الصراخ فرأت صقراً بسط جناحيه على قفص العصفور ، وأخذ ينقره من جانبه إلى جانب ، والعصفور يعلو ويهبط فى ذهول ، فلطمت الصقر بيدها لطمة قهرته على الفرار ، ثم أنزلت العصفور إلى مكانه بالدور الأول ، بعد أن ترك الصقر رأسه جرحاً صار فى صورة « الشوشة » التى تزدان بها رءوس بعض الشبان

بدا لى بعد ذلك أن أقيم العصفور فى الشرفة لحظات من كل صباح وأنا أتهيأ للخروج ، لعل الصقر يدنو فأصطاده ، وأنا مولع باصطياد الصقور والنسور ، ولكن الصقر كان أمكر منى فقد كان يقف من بعد ، ثم ينصرف حين يعرف ما أريد

قلت لأبنائى : إن الصقر لن ييأس ، وهو يتحرق شوقاً إلى لحم العصفور المغرد ، وفى هذه المنارة لوح من الزجاج حطمه رصاص المدافع أيام الغارات الجوية ، فانتظروا نزول الصقر من هذا المكان لتصطادوه ، إن اجترأ على النزول

* * *

ثم كانت العجيبة الآتية :

جاء عيد الفصح ، ومضى أبنائى إلى سنتريس ، ليشهدوا مطلع الربيع فى الحديقة التى تنتظر قدومهم فى كل صباح ، الحديقة التى أعدّ أشجارها من أبنائى

ونظرت فرأيتنى فى البيت وحدى ، ورأيت العصفور فى إملاق ، فلم يكن أمامه غير حبات لا تدفع غوائل الجوع ، وهو أضعف من أن يحتمل الجوع

مضيت إلى دار ابنى الأكبر أستشيره فيما أصنع ، وكان العصفور غرّد بعد الغروب ، وهو لا يغرّد بعد الغروب إلا فى توسل اللهوف

وخرجنا فطوفنا بشوارع مصر الجديدة وبعض شوارع العباسية فلم نجد طعام العصفور فى أى مكان

وبعد متاعب وجدنا نوعاً من السمسم يصلح لاقتيات العصافير ، فيما قيل

أقبل العصفور على السمسم يلتهمه بلا احتراس ، ليأمن غائلة الجوع ، ألم أكن أقدم إليه أعصاناً يابسة فينقرها بشهية لأنها تذكره بعهد أجداده فى حضانة الغابات ؟

ولكن نشاط العصفور أخذ يضعف من يوم إلى يوم ، وانتهى الأمر بموته فى جنح الليلة الماضية ، فما العبرة من ذلك الموت ، ولكل موت عبرة ؟

أمانه الاكتفاء بالطعام الواحد ، والطعام الواحد يميت الجسوم والعقول

الآن عرفت كيف كان يغرّد بأسلوب رتيب لا يعرف تلوين الألحان

الآن عرفت كيف تقترب طرائق الصوت عند أكثر صنوف الحيوان ، فما كان ذلك إلا لأن كل أمة حيوانية لها طعام واحد ، ولو بَعُد ما بينها بعد الشمال من الجنوب

الآن عرفت كيف امتاز الإنسان باختلاف الألوان فى الملامح والطبائع والأصوات ، وكيف يختلف رجل عن رجل وأمة عن أمة فى طرائق التعبير عن المعانى

تلوين الطعام يلون الأهداف والأغراض والآراء والأهواء

وذلك كنز وصلت مفاتيحه إلى بعض الشعوب فهى تُلقى بأبنائها فى مجاهل الشرق والغرب ، لترتاض أمعاؤهم على الحياة ، ولو فوق متون البراكين

كم تمنيت أن أعيش أياماً فى سفح فيزوف ، وكان يستهويني حين تمر عليه الباخرة بالليل . . . ولكن لا بأس ، فقد أمتعتنى الحياة بصنوف من المضجرات والمزعجات والأحابيل .

هل يمر يوم بلا متاعب على من يمتشق القلم فى كل يوم ؟

زكى مبارك